المؤتمر العلمي الدولي الثالث: "الخطاب الديني المعتدل"

المنظم من طرف كلية التربية الأساسية – جامعة الكوفة

المنعقد يومي: 5-2024/6/6

عنوان المداخلة:

"وسطية الخطاب الديني في القرآن الكريم وأثرها في وحدة الأمة"

الدكتور: مسعي محمد السعيد

أستاذ محاضر بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة-الجزائر

البريد الإلكتروني:

mesaimohammed.said@univ-emir.dz

محور الدراسة : المحور القرآني

السنة الجامعية: 2024/2023

الملخص باللغة العربية

يهدف هذا البحث إلى تبيان جملة من وسطية الخطاب الديني في القرآن الكريم وبيان مدى انعكاساته الإيجابية في توحيد وحدة الأمة، حيث تناول في مطلعه مفهوم الخطاب الديني والذي بدوره تدور عليه أفلاك الوسطية ، ثم التطرق إلى بيان أهم الأسباب التي أدت إلى اختلاف التيارات الفكرية لدى بعض أطياف الحركات الإسلامية، وكيف توغل الفكر المتطرف في تغيير مسار الخطاب الديني عبر زوايا رؤية كل واحد منهم، غير أن هذه القراءة يجب أن تخضع لمبدأ فقه الواقع للناس ومعرفة ظروفهم حتى يتمكن العالم من معرفة كيف يسقط النصوص عليهم وفق مقتضى إرادة الله سبحانه وتعالى .

Summary

This research aims to elucidate a series of moderate religious discourse in the Quran and highlight the extent of its positive reflections in unifying the unity of the nation, where it begins by addressing the concept of religious discourse, around which the orbits of moderation revolve. It then touches upon explaining the most important reasons that led to the divergence of intellectual currents within some spectrums of Islamic movements, and how extremist thought penetrated in altering the course of religious discourse through different perspectives. However, this reading must adhere to the principle of understanding the reality of people and knowing their circumstances so that the world can understand how the texts apply to them according to the will of Allah Almighty.

"وسطية الخطاب الديني في القرآن الكريم وأثرها في وحدة الأمة"

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ومولانا محمد النبي الأمي الطاهر الزكي صلى عليه الإله في أرضه وسمائه وعليائه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فقد جات مداخلتي ضمن المحور الأول والمعنون بالمحور القرآني، واستمت بعنوان: "وسطية الخطاب الديني في القرآن الكريم وأثرها في وحدة الأمة" حيث تتناول هذه الورقة العلمية جزء من الحديث العام حول وسطية الخطاب الديني في القرآن الكريم وانعكاساته الإيجابية في لَم ِشمل وحدة الأمة، وتعزيز قيم التآلف فيما بينها مما يؤدي ذلك كله إلى التعايش الاجتماعي في كنف الأمن والسعادة.

إن الناظر في جملة معاني ودلالة النصوص الدينية الموجهة للناس يرى أنه يحتوى على عدة سمات وخصائص كلها تراعي ضوابط فقه الواقع والظروف المحيطة بالإنسان؛ لذلك "يعتمد الخطاب الديني على الفقه لذا يجب ألا يكون همه ذكر الماضي فقط، وإنما يجب أن يوظف الماضي في خدمة الحاضر والمستقبل ويواكب الأحداث التي نعيشها، ويُبن الأحكام الشرعية في كل منها مؤكدا أن الخطاب الديني يجب أن يعتمد على فهم عقلية وثقافة ونفسية المخاطبين، قال علي رضي الله عنه (حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا مالا يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله)"[1]، فالمستفاد من هذا أن لا يسقط العالم نصوص الخطاب في الأمر والنهي لمن وجب لهم التبليغ حتى يتفرس بذاته وعقله في الواقع المعيش والظروف المحيطة بهم حتى لا يقع في تناقض القول مع العمل.

وقبل الخوض في مبحر متغيرات هذا البحث لا بد أن نعرف الخطاب في اللغة والاصطلاح، وعليه فقد جاء في لسان العرب لابن منظور: "يُقَالُ: خَطَبَ فلانٌ إِلَى فلانٍ فَخَطَّبَه وأَخْطَبَه أَي أَجابَه. والخِطابُ والمُخاطَبَة: مُراجَعَة الكَلامِ، وَقَدْ خاطَبَه بالكَلامِ مُخاطَبَةً وخِطاباً، وهُما يَتخاطَبانِ"[2].

1- وائل رفعت خليل: **إشكاليات الإعلام ومعطيات الواقع**، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2015م، ص76.

2- ابن منظور: **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثالثة، 1414 هـ، ج1، ص361

وجاء في أساس البلاغة للزمخشري: " خ ط ب خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام. وخطب الخطيب خطبة حسنة. وخطب الخاطب خطبة جميلة. وكثر خطّابها. وهذا خطبها، وهذه خطبه وخطبته. وكان يقوم الرجل في النادي في الجاهلية فيقول: خِطْب، فمن أراد إنكاحه قال: نكحٌ. واختطب القوم فلاناً: دعوه إلى أن يخطب إليهم، يقال: اختطبوه فما خطب إليهم"[3].

أما من الناحية الاصطلاحية فيعرف الخطاب الديني كما قيل: "فالمقصود بالخطاب الديني أن يوجه هذا الخطاب باسم الإسلام للناس جميعا سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين لتعريفهم بالإسلام، وقد يأخذ الخطاب شكل خطبة الجمعة والمحاضرة والمناقشة والرسالة والمقال والكتاب الحوار والمسرحية الهادفة والأعمال الدرامية المعبرة وغير ذلك"[4].

وبناء عليه "يمكن القول أن المراد بالخطاب الديني في العصر الحديث هو إبراز الإعجاز اللغوي والعلمي والتشريعي والتربوي والسياسي والاقتصادي والعسكري والتاريخي والاجتماعي والنفسي، وذلك بأسلوب يتناسب مع مقتضيات العصر بأسلوب عصري يعتمد على الحوار والنقاش في طريق العرض، يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [5]"[6].

وعلى هامش هذا القول لقد أدت القراءة العشوائية للنصوص القرآنية دون اعتبار للمقاصد العامة التي نزل في حقها الشرع إلى تبعثر وحدة الأمة وانحلال دعائم مقوماتها الشخصية وركائزها الاجتماعية، مما أثر سلبا على وحدة الشعوب الإسلامية واختلاف مناهجها الفكرية على جميع الأصعدة والمستويات.

وعلى خلاف ذلك فالله سبحاته وتعالى حينما أراد إعمار الكون ونشأته اقتضت الإرادة ومشيئته الأزلية في عالم الذر من قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة أن يجعل

3- أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري: **أساس البلاغة**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1998م، ص255.

4- وائل رفعت خليل: **إشكاليات الإعلام ومعطيات الواقع**، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2015م، ص75.

5- سورة النحل الآية 125.

6- وائل رفعت خليل: **إشكاليات الإعلام ومعطيات الواقع** ، المرجع السابق، ص76.

للوجود كله منهجا قويما يُستند عليه المرء في تحكيم حركة الحياة، لقوله تبارك وتعالى: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)[7]، فلعل من جميل مكتوباته عزَّ وجلّ اختلاف صناعته للكائنات في عالم الشهود باختلاف طبيعة المخلوقات وأذواقهم المعرفية بخالقهم، ومن أجل ذلك أرسل الله سبحانه وتعالى لهم الرسل مبشرين ومنذرين بالوحي والقول المبين قال تعالى: (رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا)[8] ، فأنزل إليهم كتابا فيه ذِكْرهُم ويغنيهم بوسطيته واعتدال أحكامه عن شتى الخلافات، ولألى تكون حجة لهم يوم القيامة، ومع ذلك ألزمهم كلمة الوحدة باتباع الصراط المستقيم قال تعالى: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[9]، وهذا ما يحقق وحدة الأمة والتعايش السلمي فيما بينهم.

وبناء عليه فقد جاء الخطاب الديني في القرآن الكريم خطابا وسطيا في شتى أحكامه وتشريعاته حتى لا يكون على كل مخلوق مشقة في التعامل مع نصوصه في تحكيم حركة الحياة، حيث كان مرجعا يُستند عليه في توحيد خلاف الأمة وإزالة عنها كل ما يفرقها؛ أي أنه يعمل على تسوية كل الخلافات العالقة بين أطياف المجتمعات؛ وذلك الرجوع إلى الكتاب والسنة وفق مقتضى فقه الوسطية والاعتدال ما يضمن لهم الألفة والتآلف والتعايش الاجتماعي في وسط تسوده كل معاني العيش الكريم والحياة الطيبة.

إن وسطية الخطاب الديني في القرآن الكريم بشتى مضامينه وأبعاده التشريعية لم ولن تأتي في الأمر والنهي عبثا في تنظيم قوانين إدارة الحياة كما يدعيه خصوم الإسلام، بل جاءت من أجل رفع الحرج على الناس بالتسديد والتقريب؛ لاسيما في الأحداث والنوازل، وحينما اختلت موازين المعادلة الصحيحة بين الحق والباطل أخذت أناس بالطعن وإثارة الشبهات في حقه؛ وذلك

7- المائدة: 48

8- النساء: 165-166

9- الأنعام: 153

لما ينافي هذا الخطاب من مكاسب وأغراضهم الشخصية، وهذا ما دفع الكثير منهم بالتحيز عن منطق الخطاب الشرعي المتسم بالوسطية واتصافه بصفاة الغلو والتمييز.

لكن أمر الله تعالى كان مفعولا حينما خص الاعتدال أمة دون أخرى طبقا لعلمه ولمعرفته سبحانه وتعالى بأمة الدعوة والاستجابة منهم، فقد خص أمة سيدنا محمد بخاصية الوسطية لقوله سبحانه وتعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)[10].

وبناءً على ما سبق ولما تتضمنه كلمات هذا البحث من أبعاد في المحتوى والمضمون، نستنتج بأن القرآن الكريم على اختلاف مناسبات نزول آياته وتنوع تشريعاته إلا أنه في حقيقته أخذ بالاعتدال قولا وفعلا شرعة ومنهاجا، حتى يضمن للفرد التماشي السليم طبقا لمتطلبات الحياة والتفاعل الإيجابي لروح الفكر الرشيد، ولا يتأتى ذلك إلا بفقه الوسطية والتأسي بقواعده والتحلي بقيمه النبيلة.

كما نستنتج أيضا أن وسطية الخطاب الديني في الجانب والمسار الديني لعبت دورا فعالا في تصحيح القراءات ذات التطرف الفكري، حيث ساهمت في معالجة جراح أطياف الحركات الإسلامية وزيف دمها لاسيما المعاصرة منها التي شوهت فرقة منها صورة الخطاب الشرعي في تحكيم آياته ضمن اسقاطها على واقع الناس؛ بغية الامتثال في تطبيق الأمر والنهي المطلوب، مما أدى إلى قسوة في التعامل مع ضوابط الشرع في الالتزام بقواعد النصوص، فكل هذا وذلك حاصل جراء عدم التفقه في دلالة مضمون ومقاصد الخطاب، غير أن فئة من علماء الأمة ممن كان لهم ذوق معرفي في التقصي لمجريات النصوص وأسباب نزوله عرفوا بحنكتهم وبمنهجهم العرفاني كيف يسقطون النصوص على واقع الناس من غير إكراه في تلبية النداء فأصبحوا بذلك رمزا للهداية كما كان الشيطان لعنه الله رمزا للغواية.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

10- البقرة: جزء من الآية: 143